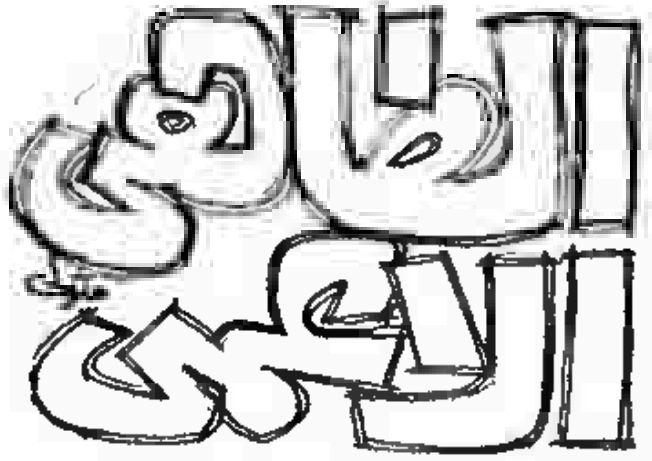

هذه القصة من الأدب السوفييتي الحديث ، كاتبها مازال حيا يرزق، وقد ولد كونستانتين بوستفسكي من أسرة متوسطة وبدأ كتابة القصة بعد الثـــورة وسـجل في قصصه الحياة والمواقف الانسانية التي تلقاها الطبقات المختلفة ٠

وهو مازال يعيش ويكتب حتى الآن ، لكنه يرفض الحياة في موسكو ، ويفضل العيش في القرى والضواحي خارج موسكو حيث يمكنه ان يرى خضرة الشجر وبياض الثلوج والطبيعة في جميع صورها التي يعشـقها عشقا لامزيد عليه ٠

ولذلك يلاحظ دائما في قصصه تسجيله لجمال الطبيعة في صورها المختلفة ٠

قصة : كونستانتين بوستفسكي

ترجمة : عبلـــه فتحي

في مساء أحد أيام شتاء عام ١٧٨٦ ، في ضواحي فيينا ، وفي منزل صغير من الخشب ، كان يرقد رجـــل عجـــوز يحتضر ٠

ومنذ أعوام قليلة ، كان هذا العجوز يعمل طاهيا عند أحد كبار الأغنياء الى أن فقد عينيه في حادث انفجـــار موقد كان يعـــد عليـــه الطعـــام ، فاعتزل

العمل وعاش مع ابنته الوحيدة ماريا فى هذا المنزل الصغير ٠

وكانت الغرفة التى يرقد فيها المحتضر يبدو الفقر فيها بوضوح ، فالسرير قديم والمائدة متهالكة ، ومظهر الثراء الوحيد كان يبدو فى بيانو قديم متهالك يقف فى ركن من الغرفة ٠

ورفع العجوز رأسه وتمتم : ادعى يا ابنتى الى الطريق واسألى أول شخص يقابلك ان يأتى لاعترف بين يديه ، فمنزلنا منعزل ، وعسير متيسر الآن احضار قسى ، ولم يعد أمامى وقت كبير لكى أعيش ٠ وارتجفت يدا الفتاة وهى تعقد شالا كبيرا حول رأسها وتسرع الى الطريق ، وكانت الضاحية

ساكنة سكونا تاما ولا اثر للحياة فيها ، ثم بدا لعينيها شبح غير واضح لانسان واسرعت «ماريا» اليه وقبضت على ذراعه وهي ترتجف ·

ماذا هناك ؟ سألها الغريب – وفي صوت يرتعش ابلغته ماريا برعبة ابيها ·

وقال الغريب : حسنا ولو انى لست قسا لكن هذا لا يبدو هاما الآن ، هيا بنا ·

وصحبته «ماريا» الى المنزل ، وهناك خلع الغريب معطفه بسرعة وجلس بحوار المحتضر وقال في صوت هادىء :

– والآن ، قد لا يكون لى الحق في سماع اعترافاتك فذلك الحق لم يمنحه لى الله ولكنى استمد هذا الحق الآن من فنى ، فالفن كالدين يتساوى معه في القداسة ·

والآن ، ماذا تريد ان تقول ؟

همس العجوز في صعوبة : **انه ذنب كبير يؤرقنى** ، فقد اشتعلت طوال حياتى قبل أن أفقد عينى ، وكنت رجلا شريفا ولم أفعل أبدا شيئا ولكن عندما مرضت زوجتى « مارتا » ولم يكن عندى مال لشراء الدواء لها ، لم أتردد ، واخذت صحنا ذهبيا صغيرا من ممتلكات السيد الذى كنت في خدمته ، ولكن ·· آه ·· ليتنى علمت ان الذهب لن ينقذ مارتاى العزيزة من الموت اذن

– واقسم – لما كانت امتدت اليه يدى ·

ورفع المحتضر يده كما لو انه يردد قسما ·

– وسأله الغريب وهل عوقب خادم اخر غيرك بسبب السرقة ·

– كلا ·

– اذن ·

ولمعت عينا الغريب بوهج مفاجىء وهو ينحنى فوق المحتضر ·

– فانت لست آثما ، ليس أمام الله ولا أمام الناس ، فقد فعلت ما فعلت من اجل حبك لزوجتك وهذا يكفى عند الله والناس ، لأن يكون عملك غير سىء ·

وبدا المحتضر عندما سمع هذه الكلمات كما لو كان يريد البكاء وسأل الغريب :

والآن ، هل لك أمنية اخيره تريد ان تحققها ؟ فقال العجوز وهو يتململ في رقدته : آه ·· انها رغبة أخيره حمقاء حتى انى لأخجل من ذكرها ، ولكن ·· آه ·· كم أود لو انى رأيت «مارتا» زوجتى الحبيبة بجديلة شعرها الطويل كما كانت في شبابها ··· كم اود لو انى رأيت الشمس وهي تضيء الحديقة القديمة حيث طالما جلسنا معا عندما كانت تزهر في الربيع ·· آه انى أرجو عفوك يا سيدى فانى أعلم كم هى رغبة حمقاء !

وقال الغريب وهو يترك فراش المريض وينهض متجها الى البيانو القديم المتهالك ·

حسنا قالها مرة أخرى وهو يمر بيده على أصابع البيانو وقد بدت في وجهه بشاشة عجيبة ·

وملأت أصوات البيانو الحجرة لأول مرة منذ عدة أعوام ، وبدا كما لو ان الثلج بدأ يتساقط مع أول نغمة ·

وصاح المحتضر وهو يجلس فى فراشه انى أرى ·· نعم ، انى أرى الآن «مارتاى» كما قابلتها أول مرة ، كان ذلك فى الشتاء ، وكانت السماء غائمة كما لو كانت لوحا من الزجاج الأزرق القاتم ، وجاءت « مارتا » تحمل لى جره مملوءه باللبن وكانت تبتسم ، آه ، كانت تبتسم كما أراها الآن ·

واستمر الغريب يعزف وخفت صوت المحتضر ·· وها هودا المساء ، كم كان قاتما ، وعميقا فى هذا المنزل الخشبى الصغير الذى عشنا فيه معا عندما جاء الربيع ، وأزهرت حوله الزهور التى غرستها « مارتا » وكانت كلها بيضاء ، انى أرى كل ذلك الآن نعم ، انى أرى كل شىء بوضوح ·

وأدار العجوز الأعمى رأسه وصاح فى امته · افتحى النافذة يا ماريا ، افتحيها لكى أرى زهور «مارتا» البيضاء ·

وفتحت « ماريا » النافذة ولم يكن فى الحديقة زهور ، ولم يكن فيها شىء على الاطلاق ، وانما هى موسيقى الصان هى التى منحت المحتضر كل تلك السعادة فى لحظاته الأخيره ·

وقال العجوز : **والآن يا سيدى ، لا أريد أن أموت قبل ان اعرف اسمك ، اعرف اسم الرجل الذى جعلنى أرى « مارتاى » الحبيبة بجديلتها الطويلة كما كانت فى شبابها ·**

وكف الغريب عن العزف ونهض واقفا ، قال : **اسمى موتسارت ·**

وركعت « ماريا » على ركبتها أمام الموسيقار الخالد ، واحنت رأسها فى خشوع ··

وكانت خيوط الشمس الغاربة تتسلل خلال النافذة المفتوحة وعلى ضوئها الخافت تبدو الحديقة المهجورة وقد تراكمت فيها الثلوج ·

وعندما رفعت « ماريا » رأسها كان المحتضر قد مات ·